مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية
ISSN 2170-0370/E-ISSN 8127-2710
المجلد 13- العدد1/ 2022،ص ص 347- 360

جهود العالم عبد القادر المشرفي في الرد على القبائل المتعاملة مع الاسبان بوهران على ضوء مؤلفه "بهجة الناظر".

The efforts of the scholar Abdelkader Al-Mushrifi in response to the tribes dealing with the Spanish in Oran in light of his book "Bahjat Al-Nazer"

قدور بوجلال
جامعة معسكر، boudjellal.kadour@univ-mascara.dz

تاريخ الاستلام : 2021/04/30 ؛ تاريخ القبول : 2021/07/02 ؛ تاريخ النشر : 2022/01/30

الملخص

إن ما كتبه عبد القادر المشرفي يمكن أن يدخل في إطار وقوف العلماء في صف العثمانيين من أجل توحيد أجزاء البلاد عامة، هذا الأخير الذي ندّد بالقبائل التي تعاونت مع الإسبان أثناء إحتلالهم لوهران وكان على رأس العلماء الذين تبنّوا – بحرارة– دعوة العثمانيين لإستنقاذ المدينة من براثن النصارى. ثم بعد ذلك أفتى للحكام بجواز خلع مَنْ تخاذل عن الجهاد أو من ثَبُتَ تورّطه في مداخلة النصارى الإسبان، كما أفتى بقتالهم إن إمتنعوا وكان دافعه إلى ذلك كلّه تشوّفه إلى إتّحاد كلمة المسلمين في وهران ومن ثمّ القيام بواجب الجهاد ضدّ الأعداء.

إنّ ما يهمّنا في هذه الدراسة إبراز موقف الشيخ عبد القادر المشرفي من بعض القضايا الهامّة والمصيرية التي عاشتها الجزائر آنذاك، مع تبيان الدوافع والأسباب التي كانت وراء ذلك. وقبل أن نبدأ الكلام في الموضوع هذا يجدر بنا أن نُقدّم له بالحديث عن عبد القادر المشرفي فمن هو يا ترى هذا العالم الكبير؟ ومن هم شيوخه وتلاميذه ؟ وما هي مؤلفاته؟ وما مكانته بين أقرانه العلماء؟ ثم نعرّج على التّعريف بالرّسالة التّي تركها الشيخ ومحتوياتها بغية إبراز موقفه من القبائل المتعاملة مع الإسبان.

الكلمات المفتاحية : الاسبان ؛ القبائل ؛ المشرفي ؛ الإيالة ؛ وهران.

Abstract

What Abd al-Qadir al-Mishrifi wrote could fall within the framework of scholars standing on the side of the Ottomans in order to unify parts of the country in general, the latter who denounced the tribes that cooperated with the Spanish during their occupation of Oran and was at the head of the scholars who adopted - warmly - the Ottoman call to save the city from the clutches of the Christians .

What we are interested in in this study is And before we start talking about this topic, it great scholar? Who are his elders and students? What are his books? What is his position among his fellow scholars? Then we introduce the message that the Sheikh left and its contents in order to highlight his position on the tribes dealing with the Spanish.

Keywords : Spaniards; tribes ; Moderator; Assignment; Oran.

(مقدمة) :

ممّا لاشك فيه أنّ بقاء الحكم العثماني في وهران – بصفة خاصة – كان مرهونا في غالبه بوحدة كلمة سكانها وإئتلافهم فيما بينهم، وتراصّ صفوفهم وبُعدهم عن الخلاف والتّشرذم والتّنازع والتشتّت. فأيّ خلل في ذلك يُعرّض مدينتهم للتهديد الخارجي المتمثل بالقوى الإسبانية المحاصرة لهم من جهة، والجماعات والقبائل المحلية النصرانية –بنوعامر– القاطنة معهم في الداخل من جهة أخرى. وقد وعى العلماء المخلصون هذه المعادلة فتشبّثوا بالوحدة وإستماتوا في الحفاظ عليها، وسلكوا شتّى الطرق المفضية لإرساء أركانها وتثبيت أسسها.

ولقد ظهر أثرهم في هذا المجال بشكل جليٍّ زمن الباي مصطفى بوشلاغم1696(– 1737م) الذي في كنفه عاشت وهران فترة من الزمن – أي بعد أن بقيت تحت يد المسلمين حوالي أربعة وعشرين سنة من سنة 1708 إلى غاية 1732م – مشمولة بوحدة ربَطتها سياسيًا وعسكريًا بحواضر وأقطار الإيالة عامة. وفي سبيل وحدة البلاد في مواجهة الإسبان وضع العلماء أيديهم بأيدي الحكام العثمانيين فإلتفّوا حولهم وناصروهم في سيطرتهم على البلاد، وإرتبطوا بخدمتهم وأعطوا النصيحة لهم وأثنوا عليهم خيرًا في مجالسهم وكتاباتهم وزكّوا نهجهم في الحكم. وكانوا يعتقدون جازمين أن الله قيضهم لكبد العدوّ النصراني وتوهين كيده، وإستنقاذ المسلمين في وهران من عدوانه.

وعلى صعيد آخر فما كتبه عبد القادر المشرفي يمكن أن يدخل في إطار وقوف العلماء في صف العثمانيين من أجل توحيد أجزاء البلاد عامة، هذا الأخير الذي ندّد بالقبائل التي تعاونت مع الإسبان أثناء إحتلالهم لوهران وكان على رأس العلماء الذين تبنّوا – بحرارة– دعوة العثمانيين لإستنقاذ المدينة من براثن النصارى. ثم بعد ذلك أفتى للحكام بجواز خلع مَنْ تخاذل عن الجهاد أو من ثَبُتَ تورّطه في مداخلة النصارى الإسبان، كما أفتى بقِتالهم

إن إمتنعوا وكان دافعه إلى ذلك كلّه تشوّفه إلى إتّحاد كلمة المسلمين في وهران ومن ثمّ القيام بواجب الجهاد ضدّ الأعداء.

إنّ ما يهمّنا في هذه الدراسة إبراز موقف الشيخ عبد القادر المشرفي من بعض القضايا الهامّة والمصيرية التي عاشتها الجزائر آنذاك، مع تبيان الدوافع والأسباب التي كانت وراء ذلك. وقبل أن نبدأ الكلام في الموضوع هذا يجدر بنا أن نُقدّم له بالحديث عن عبد القادر المشرفي فمن هو يا ترى هذا العالم الكبير؟ ومن هم شيوخه وتلاميذه ؟ وما هي مؤلفاته؟ وما مكانته بين أقرانه العلماء؟ ثم نعرّج على التّعريف بالرّسالة التّي تركها الشيخ ومحتوياتها بغية إبراز موقفه من القبائل المتعاملة مع الإسبان.

I.1- التعريف بالشيخ عبد القادر المشرفي:

هو أبو المكارم عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن أحمد أبي جلال المشرفي الغريسي المعسكري المعروف ب: بن عبد الله ويعرف أيضا ب: سقط(الكتاني، ع. 1982:ج.5771.). وكان يدعى شيخ الجماعة وإمام الراشدية. يرجع نسبه إلى أسرة المشارف ذات الأصول الوثيقة بالعرهوبيين أبناء مَشْرَف بن عبد الرحمن بن مسعود، وأسرة المشارف إدريسية النسب من الفرع الحسني حسب أبو حامد المشرفي. (المشرفي،أ 2011.:291-292.). وبالنسبة لتاريخ ولادته، فالمشكل نفسه يطرح هاهنا شأنه في ذلك شأن جلّ أعلام هاته الفترة وبالتّالي يصعب تحديده وضبطه بدقة. حيث بالإعتماد على ما جاء به يحي بوعزيز من أنه توفي يوم الخميس 10 رمضان من سنة 1192هـ/02 أكتوبر 1778م، وأنّه قد إشترك بنفسه في الهجوم على وهران والتحرير لها سنة 1119هـ/ 1708م بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم، فإنّنا نستطيع أن نضع إحتمال ولادته مع نهاية سنة 1691م وبداية سنة 1692م.(بوعزيز، ي.2009: 143.). ومن المؤكد أن ولادته كانت بقرية الكرط ضواحي مدينة معسكر.(الراشدي،أ .1973: 33.).

نشأ الشيخ عبد القادر المشرفي بإقليم الراشدية أين تلقى تعليمًا وتكوينًا فقهيًا وأدبيًا تماشياً وشروط الفقيه العالم، حيث كان كثير التنقل بين أهم المراكز العلمية في القطر الجزائري فقرأ على شيوخ كثيرين أمثال العلامة الجزائري محمد المنور التلمساني (الناصر، أ. 1990: 53.). كما أخذ عن علماء المشرق والمغرب فأجازوه ولعلّ من بينهم الشيخ محمد بن محمد بن عربي البناني المكي والشيخ محمد بن محمد شهاب الدين الأنصاري المدني ومحمد بن حسن الميقاتي الإسكندري والشيخ مفتاح الدين أبي حسام الدين البخاري، وغيرهم من علماء عصره (سعيدوني، ن. 1999: 412.).

هذا وقد حظي عبد القادر المشرفي بإحترام الجميع، حيث كانت له مكانة مرموقة بين معاصريه من العلماء والفقهاء بعد أن إشتغل بالتدريس في معهد الشيخ محي الدين في زاوية القيطنة بواد الحمام، فأصبح من الأساتذة المبرزين وذلك ما يؤكده كثرة طلبته إذ وصفه تلميذه الشيخ أبو راس بقوله: "إنتفع به خلق كثير شريعة وحقيقة ...له دروس حسنة بسلس عبارة وألطف إشارة"(الناصر، أ. 1990: 53.). وعند بلوغه مستوى من العلم والمعرفة أسس لنفسه زاوية دينية ومعهدًا علميًا بمسقط رأسه الكرطأصبح في مستوى زاوية معهد القيطنة (بوعزيز، ي.1995: ج2، 231.)، فكان مواظبًا على بثّ العلم لدرجة أن قال فيه أبو حامد المشرفي: "... فلا تخلوا زاويته من مائتي طالب في بعض الأوقات...".(المشرفي،أ. 2011 : 292.).

كما تخرّج على يديه عدد كبير من الطلبة من أشهرهم الشيخ أبي راس، الذي يذهب إلى أنّ شيخه المشرفي: " أتقن علوما جمة وبرع فيها...وأقرّ له كلّمن رآه بالبراعة والكفاية" (الناصر، أ. 1990: 53.). ولاشكّ أنّه كان متضلّعًا في علم الأصول والفروع بدليل ماذكره أبو حامد المشرفي: "فقد كان في علم الأصول والفروع بحر لا يجارى".(المشرفي،أ. 2011: 292.).

ويبدوا أنّ عبد القادر المشرفي الذي إشتهر بين جماعته بغزارة العلم الشّرعي وسمعته الطيبة، فضلاً عن تديّنه وعدله قد كان قِبلةً لإحتكام الخصوم إليه من خلال توسّطه في بعض القضايا المختلفة بين الكراغلة وبين عرب المنطقة، وتصدّيه لبعض النزاعات التي يصعب حلّها.(شرف، ع. 2011: 135.). كما كانت تلجأ إليه جلّ فئات المجتمع الجزائري لتستفتيه وتحكّمه فيما ينشب بينها من خلافات إجتماعية، وتستفتيه في قضايا دينية كالزواج والبيع والشراء بإعتباره كان أحد أفراد المجتمع ظلّ يحسّ بما يحسّ به مجتمعه ويتأثر بما يتأثر به محيطه(بوجلال ، ق.2008: 165.).وعلى أيّ حال فقد كانت معاملته إتّجاه فئات المجتمع المعسكري وثيقة جدًا تمثلت في غالب الأحيان في حسن المعاملة، حيث جاء على لسان تلميذه أبو راس : " يخضعون له القضاة وسائر الولاة ويهابونه ويرجعون إليه ودأبهم تعويلهم عليه في مهمات الدين".(الناصر، أ.1990: 53.) وظلّ يؤدي مهمته العلمية من إسماعٍ للطلاب المتكاثرين على دروسه إلى أن توفي سنة 1192هـ/ 1778م.(الزياني، م. 1978: 198.) تاركًا وراءه مجموعة من المؤلفات أبرزها رسالته المسماة: "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر"، كما وضع نظمًا سماه : "عقد الجمان الملتقط من قعر قاموس الحقيقة الوسط" شرحه إبنه محمد الطاهر المشرفي.(سعيدوني،ن.1999:412-413.) .

I.2- التعريف بالرسالة :

الرسالة عبارة عن مؤلَّف يُعتبر من أهمّ مدونات عبد القادر المشرفي وأجلّها قدرًا،إنتهى من وضعها مابين سنتي 1764-1765م. ندّد فيها عبد القادر المشرفي بالقبائل التي تعاونت مع الإسبان أثناء إحتلالهم لوهران فإستعرض العناصر التالية :

أ- ذكر الإسبان ومواطنهم وأصلهم.

ب- ذكر قبائل بني عامر وأصلهم وموطنهم وأعمالهم تُجاه سكان مدينة وهران طيلة إستيلاء الإسبان على المدينة، وهم على التوالي: كرشتل، شافع، حميان، غمرة، قيزة، أولاد عبد الله، أولاد علي والونازرة، والتي إعتبرها عبد القادر المشرفي بمثابة الجواسيس والعملاء لصالح الإسبان.

ت- الحكم الشرعي بالنسبة لمن وقف من بني عامر بجانب الإسبان وبقي متعاونًا معهم، أو تاب توبة نصوحا وندم على ما بدر منه.(المشرفي، ع.د.ت: 5 – 6.)

ومن حيث التناول ومعالجة المعلومات وعرض الأحداث، فلقد قام عبد القادر المشرفي بتقديم عرض عام حول القبائل التي تعاونت مع الإسبان بذكره لنسبها والمجال الجغرافي الذي تسكنه وتقديره لسكانها بعدد القرى. ووصفه لأخلاق بعض العشائر المتعاونة مع الإسبان والدوافع التي شجعتهم على التعامل مع الحامية النصرانية بوهران، والتي حصرها في رغبتهم بالإستفادة من الحماية والإمتيازات والإغراءات المادية وضعف الإيمان لديهم ممّا جعلهم يقبلون بمهادنتهم والعمل عندهم كجواسيس وعملاء ضدّ المسلمين .(هلايلي، ح. 2005: 144- 146.)

هذا وقد تحالف مع الإسبان عدة قبائل ذكرها المشرفي في كتابه "بهجة الناظر" وهي:

أ- كرشتل: هي قبيلة من زناتة تُنسب إلى جدّها كرشتل بن محمد المغراوي، كانوا يقطنون عند مصب نهر الشلف في البحر ثمّ إنتقلوا إلى مزغران غربي مستغانم.(المشرفي ، ع.د.ت: 13.)

ب- شافع: وهم بطن من بطون بني عامر من قبائل العرب يُنسبون إلى جدّهم شافع بن عامر بن زغبة الهلالي، كان منهم جنود للإسبان في وهران وبلغ عددهم حوالي عشرين دوارا إعتمد عليهم الإسبان في توجيه الغارات على العرب وتقديم لهم الأخبار.(المشرفي، ع.د.ت :26.)

ت- حميان: إحدى القبائل التي يُنسب أفرادها إلى جدّهم حميان بن عقبة كانوا من جملة جند الإسبان. (المشرفي، ع.د.ت :26-27.)

ث- قبيلة غمرة : التي تُنسب إلى جدّها غمرة البربري، يرجع أصلهم من برقة ثم إنتقلوا إلى المغرب ومنها سكنوا بالحفرة وراء وهران مع حميان. بلغ عدد دواويرها حوالي الستة تجمّعت حول مدينة وهران، وقدّمت العديد من الخدمات للإسبان. (المشرفي، ع.د.ت:28.)

ج- قبيلة قيزة التي تُنسب إلى جدّها قيزة عامر بن إبراهيم، وهم فرقة من بني عامر كان مسكنهم بنواحي تارقة وبهم سُمّي الجبل الذي يقال له جبل قيزةوجيدزه، ثم بعدها إنتقلوا وسكنوا في ضواحي تمزوغة بسهل مليتة جنوب سبخة وهران إثر مجيئ إخوتهم الونازرة. بلغ عددهم حوالي ثلاثة عشر دوارا حيث مارسوا الجوسسة وتقديم الأخبار للإسبان مع مشاركتهم الإغارة على المسلمين حتّى سُمّيوا باللصوص.(المشرفي، ع.د.ت:28-29.)

ح- أولاد عبد الله التالي: وهم فرقة من بني عامر نسبة إلى جدّهم عبد الله بن سقير، كانوا يسكنون بوادي الثلاثاء من ملاتة جنوب مدينة وهران لينتقلوا بعدها إلى المطمر الأحمر بوادي مينا، حيث بلغ عددهم حوالي الستين دوارا فقدّموا المساعدات والإعانة للإسبان.(المشرفي، ع.د.ت :29-30.)

خ- قبيلة أولاد علي: وهم فرقة من بني عامر يرجع نسبهم إلى جدّهم صولة بن يعقوب بن علي بن عامر، عُرفوا بقوّتهم وتقديمهم العون للإسبان، حيث شاركوا معهم في غزو قرية الكرط بنواحي مدينة معسكر العديد من المرّات.(المشرفي، ع.د.ت :31-32.)

د- قبيلة الونازرة: وهم بطن من بطون أولاد عبد الله بن سقير بن عامر بن إبراهيم، يُنسبون إلى جدّهم ونزار بن عبد الله بن سقير بن عامر الزغبي. كانوا يتشكّلون من ستة دواوير إستقرت بوادي سنان بضواحي تيموشنت، لينتقلوا بعدها إلى نواحي تارقة فسكنوا بجبالها مع قبيلة قيزة، ثم إنتقلوا مع قيزة وسكنوا بالجبل المطل على وهران في نواحي تمزوغة. كما

إستقروا بجبال ملاتة وسهولها إتّصفوا بالقوة والبأس وبتعاونهم مع الإسبان في تقديم المعلومات والأخبار حتّى سُمّيوا بالزمالة .(المشرفي، ع.د.ت:35.)

وعلى أيّ حال فقد جاءت هذه الرّسالة في طابع ديني تحت غطاء الترهيب، حيث وصف الشيخ عبد القادر المشرفي المتعاونين مع الإسبان بالعرب المتنصّرة وبالفرقة الضالّة والكفّار المنافقين والمرتدّين والفاسقين والزنادقة وعبدة الأصنام والأوثان. (المشرفي، ع.د.ت: 12.) كما أعتبرت هاته الرسالة من الأعمال التراثية الجزائرية التي لقيت إهتماما من قبل الفرنسيين، حيث تولّى السيد بودان (M.Bodin) بترجمته إلى اللغة الفرنسية ونشره في المجلة الإفريقية (Revue Africaine) سنة 1924. (Bodin,M.1924 :193-260).

وعلى العموم نستنتج أنّ رسالة "بهجة الناظر" هي بإختصار تشنيع على من كان يتعاون من المسلمين في بايلك الغرب مع المحتلين الإسبان وحثّ المسلمين على الإحتراس منهم، حيث وَجّه عبد القادر المشرفي في عرضه هذا رسالة إلى الجزائريين من أجل الإستعداد لفتح وهران. ولعلّ ذلك هو مقصده من تأليفه للرسالة بل وحتى تهيئة المسلمين نفسيًا لفتحها للمرّة الثانية بعد أن تألّم كثيرًا لسقوطها الثاني بيد الإسبان سنة 1732م، خصوصا وأنّه قد شارك وساهم في الجهاد أثناء تحريرها الأول سنة 1708م.(الراشدي،أ .1973: 33.).

I.3- دوافع التعامل مع الإسبان :

من بين ما ترتّب عن الوجود الإسباني فترةً أطول في المرسى الكبير ووهران إتّجاه بعض القبائل إلى التعاون مع الإسبان، وقد جعلهم موقفهم هذا يُشكّلون فئة من المجتمع الجزائري التّي نزعت إلى سلوك كان قد ساهم من دون شكّ في تعزيز وجودهم في المنطقة.(المدني، أ.1962: 101-102.) حيث أصبح يطلق عليهم إسم "العرب المتنصّرة"، كما أطلق عليهم نعت آخر أكثر شهرة وهم "المغطّسون" .(المشرفي، ع.د.ت: 12-13.) وحسب

ما جاء في كتاب "بهجة الناظر" أن المغطّسين في الأصل هم أفراد قبيلة كرشتل الذين كانوا يقدّمون الأخبار إلى الإسبان في وهران، أو يبيعون إليهم أشخاصًا وأصبح هذا النّعت يُطلق على غيرهم من الناس الذين عملوا مثلهم بدليل ما ذكره:" وكيفية التغطيس أنهم يأتون بدوابهم للدواوير على صفة الحضر المتجوّلين البائعين للعطرية، ومعهم مناطقة من الجلود الفلالية. فإذا وجدوا خبرا جلبوه للنصارى وإذا رأو فرصة في الصغير أو الكبير أخذوه وجعلوا الجلود على فيه كي لا يتكلم وحملوه على دوابهم ومشوا به ليلا لوهران، فيبيعونه للإسبانيين وينتفعون بثمنه وهذا دأبهم". (المشرفي، ع.د.ت:13–14.).

هذا وقد يتساءل المرء عن الأسباب التي دفعت بهذه القبائل إلى إتّباع هذا السلوك، ومن المفيد أن نشير إلى محاولة بعض الكتّاب للإجابة عن هذا السؤال ومنهم عبد القادر المشرفي الذي أرجعه إلى ضعف الإيمان و"الطمع في غرضهم الفاني"(المشرفي، ع.د.ت:12.). كما أشار إلى أن تلك القبائل كانت تركن إلى النصارى الإسبان بوهران وضواحيها وتسدي لهم المعونة، في حين أنّها تثاقلت عن نُصرة إخوانهم المسلمين. وبسبب ذلك بلغت أحوال المدينة تحت مظلّة الحماية النصرانية غاية في السوء صوّرها المشرفي بدقّة فقال: "لما إستقلّ قدم الإسبانيين بوهران إنحاز إليهم طوائف من الأعراب، فصاروا خدمة لهم ومن جملة جيشهم وكثر بهم السواد على المسلمين. فكانوا لهم عليهم أعوانا وفي الدين الفاسد لهم إخوانا، فشنّوا بهم الغارات وإنتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدواب والأقوات".(المشرفي ، ع.د.ت : 12.).

I.4– من صور تعامل القبائل مع الإسبان :

لاشكّ أنّ محتوى رسالة "بهجة الناظر" ليدلّ دلالة ساطعة على أنّها أحد المصنفات الجزائرية التي عاصرت أعمال الغزو الإسباني، وكشفت العديد من الحقائق عن كتيبة المغطسين. حيث عانى السكّان خاصة في الجهات التي كانت قريبة من مناطق الإحتلال الإسباني في وهران والمرسى الكبير من أعمال الغزو والسّطو على ممتلكاتهم، فقد جاء على

لسان عبد القادر المشرفي قوله: "ثم إنّ شافعا كان عددهم نحو العشرين دوارا وكانوا أهل نجدة وبأس شديد وقتال عنيد ورأي وتدبير، فتقوّى بهم الإسبانيون بغاية التمكين وإشتدت شوكتهم على المسلمين وإعتدوا بهم...وأكثروا من شنّ الغارات على الأقربين والأبعدين، فكم غزوا بهم على المسلمين وكم سبوا بهم من المؤمنين" (المشرفي، ع.د.ت :26.) كما ذكر عنهم أنّهم كانوا أشدّ إعانة للإسبان وتقديم لهم كلّ ما إحتاجوا إليه من التبن والحشيش والحطب والسمن واللبن والعسل، والضأن والمعز والبقر والخيل والإبل والبغال والحمير. (المشرفي، ع.د.ت :36-37.)

ومن المفيد أن نشير إلى أنّ هؤلاء العرب الموالين للإسبان كانوا غير آمنين بصورة مطلقة، إذ كانوا يتعرّضون في بعض الأحيان إلى الغارات أو على الأقلّ بعض منهم كان يداهمهم الجنود الإسبان للإستحواذ على أموالهم ومواشيهم. وفي معرض حديث المشرفي من أنّ شيخ قبيلة حميان هو الذي دبّر على الإسبان في بناء برج مرجاجو بُغية تحصين مدينة وهران ذكر أنّه "لما أعجبهم رأيه – الهاء تعود على شيخ القبيلة- خشوا من فتكه بهم وقالوا- أي الإسبان- المدبّر لنا مدبّر علينا، فنووا الفتك به وسكتوا وشرعوا في بناء هذه القلعة وحفروا بقرب أساسها بئرا شديد العمق وألقوه فيه خفية وردموا عليه".(المشرفي، ع.د.ت :28.) ويُفهم من هذا أنّه بالرّغم من تعاونهم هذا وتقديمهم الخدمات للإسبان كان يُنظر إليهم أنّهم أعداء المسيحيين بالمنطقة.

كما قام عبد القادر المشرفي بجهد مشكور في تحصين الهوية الأصلية الإسلامية، حيث وقف موقفًا صلبًا إزاء ما تسلّل إليها من عادات العدو الإسباني وتقاليده. وسعى إلى تبصيرها بأمر دينها وتحذيرها من عاقبة التّمادي في الإنحراف عن تعاليمه، فقد أشار إلى أن قبيلة "أولاد عبد الله التالي" إنفردوا عن غيرهم من القبائل الموالية للإسبان بصِلتهم باليهود إلى جانب صِلتهم بالعدوّ بقوله: "لقد أخبرني من أثق به من كرشتل أنه رآى العامري يُقبّل يد اليهودي فضلا عن النصراني من الجهتين تشريفا له..."(المشرفي، ع.د.ت :30.) كما ذكر

عنهم أنّهم كانوا في علاقة المصاهرة مع اليهود والإسبانيين "فلا ترى إلا العامرية في بيت الكافر تجول وأهلها في غاية الفرح".(المشرفي ، ع.د.ت :30.)

وهكذا نرى جهد عبد القادر المشرفي في ميدان الصراع ضدّ الإسبان بوهران متعدّد الجوانب، ما بين حرصٍ على وحدة البلاد وتأييد للحكّام العثمانيين الذين رآهم جديرين بحكم تلك البلاد، ودعوة للجهاد والمشاركة فيه بالأنفس والأموال وتصدٍّ للحملات الفكرية المضادة للإسلام، ومحاربة لأيّة عادات وتقاليد غريبة عن المجتمع الإسلامي.

I.5- الحكم الشرعي في حقّ القبائل المتعاونة مع الإسبان :

من المؤكّد أنّ سكان وهران تبرّموا أقصى التبرّم بحكم تلك القبائل المتحالفة مع الإسبان، إذ تولّت عليهم بمعونة النصارى وجعلت أمن المدينة بأيديهم أيضًا وأُرهِقوا بالضرائب. ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل قاموا بتدابير وأعمال أنتهك فيها الحرمات بشكلٍ سافرٍ صوّرها المشرفي بقوله: "كانوا أهل بأس شديد ولهم قوة وبطش وفتك بالمسلمين، قد نزع الله رحمته من قلوبهم عليهم...وكم لهم من غارة على المسلمين وسبي لهم وفتك بالمؤمنين".(المشرفي ، ع.د.ت :29.). إذن فلا عجب أن يسعى العلماء للخلاص ممّا أبتلي به أبناء جلدتهم متى وجدوا نهزة أو سنحت لهم فرصة، بإعتبارهم دعاة إصلاح وجهاد في نفس الوقت بُغية توحيد أجزاء الإيالة.

ولكون وهران – كما مرّ ذكره – ثغر من ثغور المسلمين ويعيش بين جوانحها أعداد عظيمة من النصارى الإسبان، وبمعنى أنّها تواجه أعدائها وخصوم عقيدتها كلّ حين. فإنّ العلماء ظلّوا يتمسّكون بما يرونه مذهبًا لأهل السنّة والجماعة في المجال الفقهي والعقائدي فوقفوا بالمرصاد لكلّ من يُعارض ذلك، سدًّا لأبواب الخلاف وما قد يجرّه من فتن ووقاية للوحدة الإسلامية في هذا الثغر القصي من أيّ تصدّع أو إنفلات قد يُؤدّي – حسب تعبير عبد القادر المشرفي – إلى إجتثاث شجرة الإسلام منه. وفي معرض تحذيره من تلك القبائل وصف المشرفي بعضها بقوله: "...لا يتّقون في الإسلام تقية فكم لهم من تطلّع على عورات

الإسلام ...وليس لهم غيرة على الإسلام، ولا لهم محبة إلاّ في عبادة الأوثان والأصنام". (المشرفي ، ع.د.ت :29-30.). ثم أضاف قائلا: "صاروا شجى في حلق الدين بإحتكام وقذى في عيون الإسلام، وحلاوة في قلوب الكفرة اللئام...وكان لهم فتك عظيم في الإسلام إذا ظفروا بأهله". (المشرفي، ع.د.ت :26-28.).

وإنطلاقا من هذا المبدأ فإنّه حالما تعاونت هذه الفرق الثمانية الضالّة – وهم كرشتل وشافع وحميان وغمرة وقيزة وأولاد عبد الله وأولاد علي والونازرة– مع الإسبان، أصدر عبد القادر المشرفي شيخ الجماعة بالراشدية فتوى بإباحة دمها بإعتبارها مشوّشة لعقائد الناس ومشتّتة لكلمة الجماعة جاء في نصها: "والحكم في هذه الفرقة إباحة مالها ودم رجالها والبالغين من ذراريها لمن ظهر بهم من المسلمين لكونها ردءا. وأمّا صغار الأولاد فلا يقتلون ولا يكونون فيئا للمسلمين...وفرقة منهم لجأت للمسلمين وصارت تقاتل معهم العدو، غير أنّها في الخفية تعلم العدو بأحوال المسلمين وتأمره بالثبات وتواعده بالرجوع عنده إذا وجدت السبيل والحكم فيها أنها فرقة الزنادقة يقتل كلّ من إطّلع عليه منها وإلاّ فأمره إلى الله سبحانه وتعالى". (المشرفي ، ع.د.ت :39.).

وهكذا نرى إتّخاذ عبد القادر المشرفي منذ البداية موقفًا صارمًا من القبائل المتنصّرة بوهران والتّي إعتدت على السكّان وأرهقتهم بالضرائب، فكان هذا سببًا في خوفه من تنامي الفوضى والإضطراب وإمتدادها إلى مدن أخرى فينفرط عقد وحدة الإيالة. ثم تَوّج ذلك كلّه بمساعيه الحميدة في إعطاء العفو للقبائل التائبة حقنًا لدماء المسلمين وتأليفًا لجماعتهم وإعادة لجوّالإنسجام بين السلطة والسكّان بقوله: "وفرقة منهم تابت لله تعالى وأنابت من موالاة العدو ومواصلاته،وتركت الإعانة له ظاهرا وباطنا وندمت على ما صدر منها سابقا والحكم فيها أنّها واحدة من جماعة المسلمين إن لم يتقدم منها ما يُبيح الدّم" .(المشرفي ، ع.د.ت :39.).

II– الخلاصة و النتائج

ومن خلال ما سبق نستنتج أنّبعض العلماء قد قاموا برصد ما شهدوه أو سمعوه من إعتداءات نصرانية على مدن إيالة الجزائر، ثمّ المبادرة بتبليغه لأولي الأمر لكي يقوموا بمسؤوليتهم في حماية المسلمين. وكذلك في رفع علم الجهاد في وجوه النصارى الإسبان المعتدين، ومن ذلك أنّهم لما عاثوا في وهران مفسدين رَصد هذا كلّه عبد القادر المشرفي في كتابه "بهجة الناظر" رصدًا دقيقًا يُخبر فيه ما جرى للحاضرة. وليس هذا فحسب بل ويستصرخ الحكّام من أجل وضع حدٍّ لهذا العبث النصراني وفتح المدينة، ومن ثمّ نظمها في سلك الوحدة العثمانية .

II- التوصيات:

وعلى أيّ حال فهذه الشّذرات المتفرّقة والمجهودات المتناثرة ذات صلة وطيدة بدور العلماء في الحفاظ على وحدة الإيالة أمام الخطر الإسباني، وتتّحد في كونها تُعبّر بجلاء عن وقوف أولئك العلماء إلى جانب السلطة العثمانية وإهتمامهم بالجهاد المضاد للقوى الإسبانية بوهران ومعايشتهم لفصوله أوّلاً بأوّل. لكن بالرغم من ذلك فهي تحتاج الى دراسة من جانب سوسيولوجي تاريخي بحت.

- المراجع :

1-بوجلال، قدور.(2008).العلم والعلماء في بايلك الغرب 1711-1830م: معسكر ومازونة نموذجا، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، الجزائر.

2-بوعزيز،يحي.(1995). أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة،ج2، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

3-بوعزيز،يحي.(2009).موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب،ج1،الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

4-هلايلي،حنيفي.(2005).عملاء وجواسيس الإسبان في بايليك الغرب على ضوء كتاب بهجة الناظر، الحوار الفكري، جامعة قسنطينة، العدد:07.

5-الزياني،محمد بن يوسف.(1978).دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الجزائر:الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

6-الكتاني،عبد الحي بن عبد الكريم.(1982).فهرس الفهارس والأثبات والمعاجم والمشيخات والمسلسلات، ج1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

7-المدني،أحمد توفيق.(1962).حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

8-المشرفي،أبوحامدالعربي.(2011).ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة، دراسة وتحقيق بن عمر حمدادو والعربي بوعمامة ، الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع.

9-المشرفي،عبدالقادر.بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

10-الناصر،أبوراس.(1990). فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته: حياة أبي راس الذاتية والعلمية، حققه وضبطه وعلق عليه محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

11-سعيدوني،ناصر الدين.(1999).من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

12-الراشدي،أحمدإبن سحنون.(1973).الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، الجزائر: مطبعة البعث.

13-شرف،عبد الحق.(2011).صورة الأسرة المشرفية بمنطقة معسكر في كتابات يحي بوعزيز، الناصرية للدراسات الإجتماعية والتاريخية، العدد: 01.

14-**Bodin, (Marcel) :** l'Agrément du lecteur : Notice historique sur les arabes soumis aux espagnols pendant leur occupation d'Oran par si Abdelkader El-Mecherfi, Revue Africaine, T: 65, 1924.pp :193-260.